

الوافي في الوفيات

قل لهذا الوزير قولَ مُحَرِّقٍ ... بِثَنَّةٍ الذُّمَّحِ أَيَّـمَما إِبْثاثٍ .
قد تَقَلَّدَتْـهَا ثَلَاثًا ثَلَاثًا ... وَطَلَّاقُ الْبَنَاتِ عِنْدَ الثَّلَاثِ .
وفيهـم يقول الصولي :

ذلَّـلَ الدَّهْرُ آلَ الْفَرَاتِ ... وَرَمَاهُمْ بِفُرْقَةٍ وَشَتَاتٍ .
لَيْتَ آلَ الْفَرَاتِ عُدُّوا جَمِيعًا ... قَبْلَ ما قَد رَأَوْه فِي الْأَمْوَاتِ .
فَلَعَمْرِي لِرَاحَةِ الْمَوْتِ خَيْرٌ ... مِنْ صَغَارٍ وَذلَّةٍ فِي الْحَيَاةِ .
لَمْ يَزَالُوا لِلْمُلْكِ أَنْجُمَ عَزَّ ... وَضِيَاءٍ فَأَصْبَحَتْ كَاسِفَاتٍ .
ومما قيل فيهم :

يا أَيُّهَا اللَّاحِزُ الضَّئِينُ بِمالِهِ ... يَحْمِي بِتَقْطِيبٍ قَلِيلٍ نَوَالِهِ .
أَوَما رَأَيْتَ ابْنَ الْفَرَاتِ وَقَدْ أَتَى ... إِدْبَارُهُ مِنْ بَعْدِ ما إِقْبَالِهِ .
أَيَّامَ تَطَرُّقِهِ السَّعَادَةِ بِالْمَنَى ... وَيُنَالُ ما يَهْوَاهُ مِنْ آمَالِهِ .
فَخَلَا مِنَ الذُّعْمَى وَأَصْبَحَ يَشْتَكِي ... أَقْيَادَهُ أَلَمًا عَلَى أَغْلَالِهِ .
وكذا الزمانُ بِأَهْلِهِ مَتَقَلِّبٌ ... فَاسْمَحْ لِمَا أُعْطِيَـتَ قَبْلَ زَوَالِهِ .

روى ابن النجَّار في ذيله بسنده إلى أبي الذَّصَرِ المَفْضَّلِ بن علي الأزدي كاتب المقتدر ومؤدِّبه أنه حضر مجلس أبي الحسن بن الفرات وعن يمينه أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجرسَّاح وعن يساره القاضي أبو عمر محمد بن يوسف وقد تأخَّرَ حامد بن العباس عن الحضور فقال الوزير : أتعلمون السبب في تأخر حامد ؟ فقالوا : لا . قال : ولكنَّـني أعلم سبب ذلك ؛ انصرف البارحة مساءً وداره بعيدة فأبطأ على جاريته فلمَّا وصل استقبلته وقبلت جبينه وقالت : يا مولاي أقلقنتني بتأخُّرك فما الذي بطَّأ بك ؟ فقال : موافقة الوزير - أعزَّـه - على الحساب . فقالت : يا مولاي حسابٌ في الدنيا وحساب في الآخرة حمل [] عنك . ثمَّـ نزعَتْ خَفَّـيْهِ وَقَدَّـمَتْ نَعْلَيْهِ وَأَفْرَعَتْ عَلَيْهِ دَسْتِ ثِيَابٍ قَدْ بَخَّرَتْـهَا وَأَخَذَتْ ثِيَابَهُ عَنْهُ وَقَدَّـمَتْ إِلَيْهِ الطَّهَّورَ . فلمَّا صلى المغرب وعشاء الآخرة قدَّـمَتْ إِلَيْهِ طَبَقًا تَوَلَّـتْ لَغِيْبَتَهُ أَلْوَانَهُ وَقَدْ وَقَفَتْ مَعَ الطَّبِيخَةِ تَحَرَّـيًّا لِنَظَافَتِهَا وَأَخَذَتْ تَلْفَمَهُ وَتَأَكَلَ مِنْهُ ثُمَّ تَوَلَّـتْ غَسَلَ يَدَيْهِ وَقَدَّـمَتْ إِلَيْهِ الشَّرَابَ وَأَصْلَحَتْ عَوْدَهَا فَشَرِبَ ثَلَاثَةَ أَرْطَالٍ وَشَرِبَتْ مِثْلَهَا وَاعْتَبَقَا . فلمَّا أصبح دخل الحمام وخرج فسقته من الجلابب بالثلج ما قطع خماره وقدَّـمَتْ إِلَيْهِ طَبَقًا مِنَ الْمَحْمُضَاتِ أَلْوَانًا طَيِّبَةً وَهُوَ الْآنَ يَأْكُلُ . ثمَّـ قال : غَسَلَ يَدَيْهِ وَلَبَسَ ثِيَابَهُ . ثمَّـ قال : رَكِبَ وَتَوَجَّـهَ إِلَيْنَا . ثمَّـ لم يزل ينزله الطريق إلى أن قال : هو في

الدهليز . ثمَّ قال : يدخل حامد . فرفع الستر ودخل حامد . فلمَّا رأيناه ما تمالكنا أن
ضحكنا . فلمَّا سلَّم وأخذ موضع جلوسه قال : ما الذي أضحككم عند مشاهدتي ؟ قلنا : صدَّ
حدس الوزير فإن شئت اقتصناه . فقال : تفصَّلوا . فاقتمصنا ما جرى بأسره فتحيَّـر ثمَّ
قام على قدميه وحلف باٍ - جلَّت أسماؤه - لولا أنَّـه يعلم أن الوزير أعف خلقاٍ لقدَّـرت
أنَّـها هي حدَّـثته ما جرى ؛ فما أخلَّـ بشيءٍ منه . فضحك الجماعة فالتفت الوزير إلى علي
بن عيسى فقال : يا أبا الحسن ما أنفع الأشياء للمخمور حتَّى ينجلي خماره ؟ فقال : واٍ
ما عاقرتُ عليها ولا سكرت منها ولا أعرف داءها ولا دواءها فأعرض عنه والتفت إلى القاضي
أبي عمر فقال : أيَّـها القاضي أفتننا فيما سألننا عنه أبا الحسن - أعزَّـه اٍ - فلم
يجبنا . فقال القاضي : نعم أطال اٍ بقاء الوزير ؛ قال سبحانه وتعالى : " وما آتاكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهؤا " وقال رسول اٍ صلَّى اٍ عليه وسلَّم : " استعينوا
على كلِّ صناعة بأهلها " . ووجدنا المقدِّـم في هذا الأمر والمُـجْمَع على اختصاصه به أبا
نواس الحسن بن هانئ ووجدناه يقول في هذا المعنى : .
داوٍ ماري من خُـماره . . . بابتة الدنِّ وقارِه ° .
من شرابٍ خُسْرٍـويٍّ . . . ما تعنَّـوا باعتصارِه ° .
طبختهُ الشمس لمَّا . . . بخل العِلجُ بنارِه ° .
فنرى - وباٍ توفيقنا - أن من تناول منها شيئاٍ قطع به الخمار وكسر سَـورته . فقال
الوزير لأبي الحسن : أما كنتَ بهذا الجواب أولى للطف الكتَّاب ودماثتهم ؟ ولكن أباٍ اٍ
إلاَّـ أن يدلَّـ على فضل قاضي القضاة ولطف نفسه وحسن استخراجه وقوة حسِّـه وكمال فتَّـوته .
الشيخ علي بن نبهان